الخليفـة العبـاسى المـأمون ودوره فى تطـور فـكرة السيـادة الاسـلامية (*)

تلمـان ناكـل
جامعة بـون
جمهورية ألمانيا الاتحادية



ان الحركة الهاشمية التى قضت على سيادة بنـى أمية فى شرق العالم الاسلامى كانت حركة متعددة الفئات، مختلفة الاصول • وكان أصلها الرئيسى الفرقة الكيسانية، وهم منتحلو آراء المختار بن أبى عبيد، وعندما فشلت ثورة المختار على ممثل ابن الزبير انقسمت هذه الفرقة وقـال بعضهم اننا لا نقاتل العـدو من أجـل محمد ابن الحنفية ، انما نقاتله من أجل امامة الرضا من آل النبى كائنا من كان •

وكان عامر بن شراحيل الشعبى المحدث المشهور قد خرج مع المختار ثم بعد هزيمة الكيسانية اعرض عنهم وقال يذمهم : لو كانت الشيعة من الطير كانوا رخما ولو كانوا من الدواب كانوا حميرا وقال الشعبى مرة أخرى أحب صالح المؤمنين وصالح بن هاشم ولا تكن شيعيا (1) • وقد قصد الشعبى بهاتين العبارتين ذم الافراط فى التشيـع لشخص معين دون بنى هاشم كلهم كما أراد ان يعبر عن ميله الى حب آل الرسول • ومن آل الرسول بنو أبى طالب بن عبد المطلب وبنو الحارث وبنو العباس وغيرهم •

(*) محاضرة ألقاها فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بتاريخ 28 فبراير 1977 .
(1) أنظر ترجمة عامر بن شراحيل الشعبى فى طبقات ابن سعد .

تدل مقالات الشعبى على ان التيار السياسى والدينى الذى غرضه استبدال خلافة بنى أمية بسيادة من هو أقرب رحما الى الرسول قد صار أوسع ابعادا بعد هـزيمة المختار • نشاهد نفس الشىء فى اشعار الكميت بن زيد التى مدح بها آل النبى يعنى بنى هاشم كلهم واشعاره مشهورة جدا لا حاجة الى ايرادها هنا •

استولى بنو العباس على الحركة الهاشمية فيما بعد • ولكن المصادر التاريخية تدل بصراحة على ان فروع بنى هاشم لم يتنازلوا طوعا عن حقهم فى الامر • مثلا كان عبد الله بن معاوية العلوى قد خرج على سلطان بنى أمية فى الكوفة ثم هرب الى فارس وأسس هناك أول دولة هاشمية مستقلة فى 129 هـ • فلحق به رجال من بنى هاشم منهم المنصور الذى صار الخليفة العباسى الثانى فيما بعد • ولكن ابن ضبارة القائـد الاموى انتصر على جند عبد الله بن معاوية فلجأ العلوى الى أبى مسلم الذى كان يقيـم بمرو حينئذ • فحسبه أبو مسلم فورا ثم قتله خوفا من ان يعلو شأنه •

بالاضافة الى ذلك تدل المراجع على تنازع شديد فيما بين أعضاء الاسرة العباسية يدعى بعضهم تراث السفاح دون البعض الآخر • فحالف عبد الله بن على على المنصور لما افضت الخلافة اليه • وما تنازل عيسى بن موسى عن حقه الا بعد تهديد عنيف • وطالب المنصور بأهل العقد والحل حق تعيين ولى العهد واجبر أصحابه على ان يعترفوا بابنه المهدى خليفة من بعده كما فعله المهدى ذلك من أجل ابنيه موسى الهادى وهارون الرشيد روى سعد بن عبد الله القمى صاحب كتاب«المقالات»ان المهدى كان أول من عقد الخلافة والامامة على أصحابه وأوليائه والامة ، ثم أصبح حق تعيين ولى العهد معمولا به منـذ ايام الرشيد (2) •

لا يمكن الشك فى ان اعلان ذلك الحق من جانب المهدى كان خطوة رائدة نحو توطيد سيطرة الدولة العباسية على المسلمين • قد نزع ذلك القانون الحق فى الامر عن فروع بنى هاشم الذين كانوا ينافسون بنى العباس كما رفع أسباب التنازع فيما بين أعضاء الاسرة السائدة • ولكننا نستطيع ان نفهم أهمية قانون المهدى فهما اعمق اذا حاولنا

(2) كتاب المقالات ـ تحقيق مشكور ـ طهران 1963 ـ ص 66 .

تحليل الاحوال السياسية السائدة على العالم الاسلامى منذ ايام انحطاط الدولة الاموية • قلت ان الحركة الهاشمية كانت حركة مختلفة الفئات وكانت تلك الفئات اصحاب فروع بنى هاشم المتنافسين • لكن الهاشمية اصبحت تتحالف مع الحركات الاخرى التى كانت تناضل من أجل القضاء على بنى أمية • روى المؤرخون ان بعض الخوارج كانوا قد اعانوا عبد الله بن معاوية على لجيش الاموى لما هرب من العراق الى فارس كما حدثنا رواة الاخباران بقية جيش الحارث بن سريج دخلوا جند أبى مسلم بمرو • كان الحارث بن سريج قد خرج على بنى أمية يطلب منهم القيام بسنة رسول الله صلعم • فجدير بالذكر ان النقباء الهاشميين كانوا يأخذون البيعة على الهاشمية على الشكل التالى : نبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه صلعم ، والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله صلعم • وما ذكروا سنة النبى الا بعدما لحق بهم جيش الحارث ابن سريج (3) • فنرى ان جميع تيارات المعارضة قد تحالفت على الخليفة الاموى • فصارت الهاشمية تشمل اتجاهات هامة للفكر الدينى والسياسى فى ذلك العصر وان كانت متناقضة من قبل •

ولما استولى بنو العباس على الخلافة ظلوا يصالحون بين الفرق المتناقضة • يدلنا على ذلك ما قال داود بن على عم السفاح حين المبايعة فى الكوفة وهو يخاطب الناس : أيها الناس انا والله ما خرجنا فى طلب هذا الامر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا وانما أخرجنا الانفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم ويهظنا من شؤونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم وخرفهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم ــ لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلعم وذمة العباس ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلعم (4) •

(3) تاريخ الطبرى ــ طبعة ليدن ــ 2 ــ ص 1979
T. Nagel, Untersuchungen zur Entstehung des abbasidischen Kalifates, Bonn 1972, 145, 158.
(4) الطبرى ــ 3/29

ما هو مدلول هذه الخطبة ؟ يزعم داود بن علي ان دولة بنى أمية كانت دولة قبيحة لانهم لم يتمسكوا بالتنزيل ولا بسيرة الرسول بعنى بالسنة النبوية • فاستبدوا بالامر استبدادا وها دولة بنى العباس قد جاءت تضمن للمؤمنين ان تحكم فيهم بالقرآن والسنة • ويتفق ذلك مع ما ظل أصحاب السنة يطلبون من خلفاء بنى أمية وما حققه عمر بن عبد العزيز فى خلافته القصيرة المدة • لكن فى كلمات الخطبة المذكورة تعريضا لتيار فكرى ثان وهو فكرة الامامة كما دعا اليها فرق الشيعة ولا يجوز ان نغفل الاصل الشيعى للحركة الهاشمية الذى أشرت اليه آنفا • قال داود بن على ان للناس ذمة العباس • وكان أبو العباس السفاح قد قال لهم قبل ذلك : ان الله قد أيد الاسلام بنا وخصنا برحم رسول الله وقرابته وانشأنا من آبائه وانبتنا من شجرته وانزل بذلك على أهل الاسلام كتابا فقال الله تعالى : «**قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى**» — فى آيات أخرى تشبه معنى هذه الآية — فاعلم الله الناس فضلنا واوجب عليهم حقنا ومودتنا وبنا هدى الله الناس بعد ظلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم واظهر بنا الحق وادحض بنا الباطل واصلح بنا ما كان منهم فاسدا وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة فى دينهم ودنياهم (5) •

نكتفى هنا بايراد هذا الفصل من خطبة أبى العباس السفاح • فانه من الواضح ان هذه الكلمات عبارة عن الامام ومقامه فى الامة على نفس الوجه الذى كانت الشيعة تصوره عليه وهو امام أصله فى آل النبى يأتيه شيء مما يشبه الالهام وان لم يكن وحى • فنرى آل العباس قد بنوا خلافتهم على أساس فكرى يوفق بين آراء أهل السنة ومقالات أهل التشيع • واذا درسنا ما روى من أفعال الخليفة العباسى المهدى يظهر لنا هذا الاساس الثنائى لحكمه • ان المهدى كان يقتدى بسيرة الرسول • مثلا أراد أن يعيد منبر الرسول الى ما كان عليه قبل دولة بنى أمية والغى استلحاق معاوية زياد ابن أبيه وأهله واخرجهم من نسب قريش وديوانهم • فعل ذلك اعتمادا منه على السنة النبوية • ثم اعلن المهدى ان رسول الله صلعم ، قد أوصى للعباس بالامامة وان كل من

(5) المصدر السابق — 29/3

T. Nagel, Rechtleitung und Kalifat : Versuch über eine Grundfrage der islamischen Geschichte, Bonn 1975, 91 sqq.

P

سيطر على دار الاسلام قبل دولة بنى العباس انما استولى على الامر غصبا وان بنى العباس توارثوا الامامة بالوصية حتى ظهرت دولتهم على دولة بنى أمية . هذه المقالات هى التراث الشيعى للعباسيين لا شك فيه . ولكنها تؤكد استقلال الخليفة العباسى عن جميع الفرق الدينية والسياسية وتصيره فوق التيارات المتناقضة وهو الوارث الشرعى الوحيد لتراث النبى .

انى قد أطلت شرح هذه المبادىء لانها هى مبادىء الفكر الدينى والسياسى الذى هو منطلق فكر المأمون واصحابه . ان المأمون لم يبتدع أفكارا ومثلا عليا كانت محدثة بأسرها . لكنه واصل تطوير ما كان رائجا من الافكار .

عاش المأمون فى قصر البرامكة وهو شاب بالغ السن . من المحتمل انه كان يشترك فى الحياة الفكرية التى نجد آثارها فى كثير من ميادين الفكر . روى المؤرخون ان قصر البرامكة كان ملجأ الفلاسفة والمتكلمين وكان البرامكة يشجعون البحث العلمى والشغل بتراث الفلاسفة اليونان وعلماء ايران والهند وكانوا يكرمون الباحثين اكراما . من المحتمل ان هذه البيئة العقلية اثرت على الشاب تأثيرا عميقا . لكن قصر البرامكة ما كان مركزا للعلم فقط بل كان مركزا سياسيا فى نفس الوقت . يدل على ذلك ما رفع محمد بن ليث الواعظ المشهور من ذم البرامكة الى هرون الرشيد فحبسه الخليفة وما اخرجه من السجن الا بعد سقوط البرامكة . لمحمد بن ليث هذا رسالة طويلة يؤلب فيها الناس على أهل خراسان رواها ابن عبد ربه فى المجلد الاول من كتاب «العقد الفريد» ومن المعلوم ان فضل بن يحيى البرمكى كان عاملا للخليفة على خراسان . وكان يحابى أهل خراسان لا يأخذ منهم الا شيئا يسيرا من الخراج فعزله الخليفة وعين على بن عيسى بن ماهان مكانه . فعامل الناس بالعنف وخاشنهم حتى أخذ منهم مالا كثيرا . فلام فضل بن يحيى الخليفة لما بلغه ما فعل على بن عيسى فعزله الخليفة . فثار الناس فى بغداد لما رأوا من محاباة الخليفة لاهل خراسان . وبعدما حبس محمد بن ليث حاول البرامكة ان يحكموا نفوذهم على الخليفة وان يضاعفوا من قوة الحزب الخراسانى . فاقنعوا هرون الرشيد بان يعين ابنه الثانى المأمون وليا للعهد بعد أخيه الامين وبان يقسم دار الاسلام الى قسمين يعطى المأمون القسم الشرقى منها ففعل ذلك . ثم

رحل المأمون الى خراسان وتصرف فيها تصرف الامير المستقل . فاصبحت دار الاسلام قد انشقت شقين قطب الواحد منهما المأمون والعلماء الذين رافقوه منذ أيام تربيته فى قصر البرامكة ومشاوراه السياسيان حسن بن سهل وفضل بن سهل اللذان كانا يخدمان البرامكة من قبل . وقطب الآخر منهما الامين ومشاوراه على بن عيسى بن ماهان والفضل ابن ربيع الذى كان من أشد اعداء البرامكة . فلا غرو ان الاحوال كانت متوترة جدا لما مات هرون بالقرب من مدينة طوس . لم يتردد الامين فى نكث العهد الذى وعد به اخاه . عزل الامين اخاه المأمون من ولاية العهد وعين ابنه الصغير وليا للعهد مكانه وسماه الناطق بالحق . فاستهزأ الناس فى بغداد منه وقال بعضهم فى ذلك :

فعـــال الخليفـــة اعجـــوبـــة	واعجـب منـه فعـال الـوزير (6)
واعجــــب مـــن ذا وذا اننـــا	نبـــايع للطفـل فينـــا الصغـير
ومـن ليس يحســن مسـح انفـه	ولم يخـل متنــه من حجـر ظـير
ومـــا ذاك الا ببـــاغ وغـــاو	يـريـدان نقـض الكتـاب المنـير

ان المأمون لما عزله أخوه من ولاية العهد تسمى بالامام ولم يتسم بالخليفة لانه كان يتردد فى الاقدام على قطع العلاقات التى كانت تربط بينه وبين أخيه الخليفة الشرعى قطعا نهائيا . وما أخذ الطاهر بن الحسين البيعة للمأمون بالخلافة الا بعدما نشبت الحرب بين المأمون وأخيه . وما ان بلغ المأمون ان أخاه كان يتعدى على أهله وماله بالعراق حتى اتخذ التدابير اللازمة لفتح العراق وللقضاء على سيادة الامين . واستحث المأمون أهل خراسان على القتال من أجله وأشار الى الخدمة التى قدموها الى أسرة بنى العباس فى الماضى وقال لهم انى محى الدعوة العباسية التى سيكون انتصارها فى خراسان كما كان من قبل . ثم جمع المأمون الرؤساء والفقهاء ودعاهم الى الحق والعمل بـــه ووعدهم احياء الدعوة وكان يقول للرؤساء اننا نقيمكم مقام نقباء الهاشمية فى ايام أبى مسلم . ثم حط عن أهل خراسان ربع الخراج . فمدحه الناس وقالوا قد انعم علينا

(6) يعنى الفضل بن ربيع . انظر المسعودى ــ مروج الذهب ــ طبعة بيروت 1965 ــ 397/3 .

ابن اختنا وكانت أم المأمون من أهل بادغيس . فانقاد للمأمون من له شأن فى خراسان ودخلوا فى طاعته . فى تلك الايام أمر المأمون كاتبه أحمد بن يوسف ان ينشىء رسالة يوضح فيها مبادىء الحكم التى تبناها المأمون ويستحث فيها أهل خراسان على التمسك بالدعوة الجديدة . ففعل أحمد بن يوسف ذلك وانشأ الرسالة المسماة برسالة الخميس وهى من أهم وثائق الفكر السياسى والدينى فى عهد العباسيين . والخميس هو الجند ويخاطب المأمون بهذه الرسالة جنوده والقواد خاصة . وانى ساورد أهم فصول رسالة الخميس المكتوبة عن المأمون ثم ساشرح الافكار الرئيسية منها حتى تتضح المبادىء المعنوية التى كان الخليفة يعتبرها أساسا لوظيفته .

يبتدىء مؤلف الرسالة بحمد الله على نعمته ويقول ان الله فاطر السموات والارض وما بينهما هو الذى جعل ما أودع عباده من نعمته دليلا هاديا الى معرفته بما أفادهم من الالباب التى يفهمون بها فصل الخطاب حتى آستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ومتقن صنعته على ان لهم وللعالم كله بارئا هو انشأه وابتدأه ويسر بعضه لبعض ــ يعنى ان للانسان عقلا واذا تأمل الانسان ما يحيط به من المخلوقات فلابد من ان يعرف ان للعالم خالقا رحيما هو الله تعالى . ثم يقول صاحب الرسالة ان من عظيم نعمة الله على خلقه افتقاده اياهم ثم يسددهم ويدلهم على منافعهم ويجنبهم مضارهم ويهديهم لما فيه صلاحهم ويرغبهم فى المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل ولولا ما تقدم به من تلافيهم واستدراكهم بفضل رحمته لتهالكوا ببغى بعضهم على بعض وعدوان قويهم على ضعيفهم ولكنه بعد تعريفه اياهم ملك قدرته بعث اليهم انبياءه ورسله مبشرين ومنذرين لان الناس لم يكونوا ليطيعوا أمرا لآمر ولا نهيا لناه الا بحجة وتخويف ورجاء ــ يعنى لا يطيعون أمر الله الا بالوعد والوعيد ــ .

ثم يستطرد صاحب الرسالة من ذلك الى قوله انه لم تزل رسل الله عز وجل الى خلقه تترى بالنور الساطع والبرهان القاطع ... وكان انبياء الله يبعثون نذرا للامم حتى ختمهم الله عز وجل بالنبى الامى محمد صلى الله عليه وسلم وأكمل الله لعباده دينهم الذى ارتضى لهم...ثم خلفه الله ــ اذ ختم به الانبياء ــ بالبررة النجباء من ادانيه ولحمته لاقامة الشرائع المفترضة وانفذ حكم الله المنزل ... ثم يقول ولو كان الائمة

المقلدون أمر عباد الله خاملة انسابهم غير مخصوصين بفضيلة يرونهم بها دون غيرهم لم يعد عقد الخلافة لهم ان تكون من مفترضاته على كافة الامة أو على بعض دون بعض ويشرح لنا صاحب الرسالة انه لو كان الناس بأنفسهم مسؤولين عن اختيار خليفتهم لم يتفقوا ابدا على شخص واحد ولو كانت الامة على مثل هذه الحال من اختلاف الآراء لهلكت بعد مدة يسيرة • ولذلك السبب وصل الله نسب الخلفاء بنسب رسوله صلعم ليرى المؤمنون من يلتجئون اليه فيما يهمهم من الامور ـ • وقال المؤلف ولم يزل سياق أئمة الهدى مطردا ونظامهم متصلا يتلقاه كابر عن كابر ••• حتى تناهى الى أمير المؤمنين وهو حال دار دعوته وبين انصاره من أهل خراسان ـ ثم يصف صاحب الرسالة فضائل أهل خراسان ويحمدهم على ما رأى بنو العباس من اخلاصهم لهم ومن حبهم لاهل البيت ويعدهم جزاء خيرا اذا اعانوه على النصر ويعظهم عن خذلان الامر الحق • (7)

ان الافتراض الرئيسى الذى يبنى الخليفة افكاره عليه هو اعتقاده ان الله قد خلق الانسان كمخلوق له عقله الحر • فاذا من واجبات الانسان ان يستخدم عقله حتى يدرك اسرار الكون ونظامه فيعرف كنه نواميس الطبيعة وكذا كنه الشريعة التى نظم الله تعالى بها علاقات الانسان بالله وتعايش الناس فيما بينهم • من المشهور ان ذلك الافتراض من اعتقادات التيار المعتزلى الذى أصبح يزدهر فى أواخر القرن الثانى الهجرى والذى عرفه المأمون حين تربيته فى قصر البرامكة • كان المعتزلون يمدحون العقل وكانوا يقولون اذا استخدمنا العقل ونقدنا جميع المقالات وكل ما يعتقد الناس بحسب قواعد المنطق حصلنا على العقيدة الصحيحة الوحيدة فتعود الامة أمة واحدة بعد ما كانت فرقا متناقضة • وسيضمحل فساد القتال والحروب بعد توحيد الدين أو الآراء الدينية • كل هذا من التأثير الحسن الذى للعقل الانسانى على الحياة الاجتماعية • وكان المأمون يرجو ان يصالح بين الاحزاب المتخاصمة بالحجج العقلية لا بالقهر والعنف والتهديد • روى الخطيب البغدادى ان المأمون كان يقول غلبة الحجة احب الى من غلبة القدرة لان غلبة القدرة تزول بزوالها وغلبة الحجة لا يزيلها شيء • (8)

(7) جمهرة رسائل العرب ـ تحقيق أحمد زكي صفوت ـ القاهرة 1937 ـ 3/رقم 207.
(8) الخطيب تاريخ بغداد القاهرة 1931 ـ 10/183 ـ رقم 5337 .

الجدال الفكرى حر مباح . هذا من معتقدات المأمون ـ والجدال الحر يؤدى بالانسان الى الحقيقة الدينية والى الوحدة السياسية ثم الى السلم . ولكن ما وظيفة الخليفة أو امام الهدى فى هذا النزاع الفكرى ؟ هل يدرك الانسان كل ذلك بدون معلم وبدون دليل ؟ لا . يقول صاحب رسالة الخميس لا يمكن الانسان تحقيق تلك المثل العليا بدون مرب .

ووظيفة امام الهدى هى تربية الناس حتى يستطيعوا ان يحققوا مصالحهم تحت اشراف الامام . ان الله بعث رسله الى الامم القديمة ليدلوهم على الحق وليعينوهم على تحقيق احكام الشريعة التى فهموا حقيقتها بالعقل الذى من الله عز وجل به عليهم . وكان الرسل والانبياء قد ادوا تلك الوظيفة بواسطة الوحى الذى كان يأتيهم من عند الله . لكن لا يجوز لمخلوق ادعاء الوحى الالهى بعد وفاة محمد لانه كان خاتم الانبياء .

فاذا ما يؤهل امام الهدى لاداء مهمته التى لا بقاء للامة الا بها ؟ قال صاحب الرسالة ان الله خلف رسوله محمدا البررة النجباء من لحمته أى من أسرته ومن اقربائه الادانى . فيجوز الاستنتاج من هذه العبارة ان لاهل البيت مزايا خاصة تميزهم عن سائر الناس وتلك المزايا هى مواهب من عند الله وهبها لهم تقديرا منه لهم على القيام بوظيفتهم الضرورية . ومما يبدو لنا ان تلك المواهب المشار اليها هى مواهب تصل بين الائمة والانبياء وتضمن لكل مؤمن استمرار الهدى الالهى على الارض ـ طبعا على مستوى ادنى منه فى حياة الرسل والانبياء لان الوحى الالهى قد انقطع عن الانسانية الى الابد لما توفى الله محمدا صلى الله عليه وسلم . فنجد لامام الهدى منزلة عظيمة الشأن عند الله وأيضا عند جماعة المسلمين وان كان شأنه أقل أهمية بكثير من شأن الأنبيـــاء .

وصف عمرو بن بحر الجاحظ شأن الامام مقارنا بين مقام كل من الرسل والانبياء والائمة وكان ما شرح الجاحظ من أصول الامامة موافقا لرأى المأمون لان الجاحظ كتب فى بعض فصول كتاب البيان والتبيين ان المأمون قرأ مؤلفاته فى الامامة فوجدها على ما أمر به . (9)

(9) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ طبعة القاهرة 1956 ـ 329/3 .

قال الجاحظ فى رسالته المسماة بكتاب استحقاق الامامة ان الجماعة لا تخلو ابدا من الحاجة الى امام يهديهم وان دلهم عقلهم على حقيقة الشريعة وضرورة العمل بها · والائمة ثلاثة أنواع : رسول ونبى وامام · فالرسول نبى امام والنبى امام وليس برسول والامام ليس برسول ولا نبى · وانما اختلف اسماءهم ومراتبهم لاختلاف المقومات والطبائع وعلى قدر ارتفاع بعضهم عن درجة بعض فى العزم ··· وبتغير الزمان يتغير الغرض وتتبدل الشريعة فافضل الناس الرسول ثم النبى ثم الامام فالرسول هو الذى يشرع الشريعة ويبتدىء الملة ويقيم الناس على جمل مراشدهم ولولا ان فى طاقة الناس قبول التلقين وفهم الاشارة لكانوا هملا ولسقط عنهم الامر والنهى ولكنهم يفصلون بين الامور اذا أوردت عليهم وكفوا مؤنة التجربة وعلاج الاستنباط ·· ولن يبلغوا بذلك قدر المستغنى بنفسه المستبد برايه المكتفى بفطنته عن ارشاد الرسل وتلقين الائمة · وانما جاز ان يكون الرسول مرة عربيا ومرة عجميا وليس بيت يخطره ولا شرف يشهر موضعه لانه حيث كان مبتدىء الملة ومخرج الشريعة كان ذلك اشهر من شرف الحسب المذكور وانبه من البيت المقدم ولانه يحتاج من الاعلام والآيات الى الظاهر المعقول والواضح الذى لا يخيل ان يشتهر مثله فى الآفاق فلا يحتاج حاله معه الى مال ولا قدره الى حسب ولان النبى ليس برسول ولا مبتدىء ملة ولا منشىء شريعة وانما هو للتأكيد والبشارة كبشارة النبى بالرسول الكائن على غابر الايام وطول الدهر · وتوكيد المبشر يحتاج من الاعلام الى دون ما يحتاج اليه المبتدىء لاصل الملة الناقل للناس عن الجهل الراسخ · فلذلك اكتفى النبى بشهرة اعلام الرسول وشرائعه من شهرة بيته وشرف حسبه لانه لا ذكر الا والنبى خامل عند ذكر الرسول ولا شرف الا وهو وضيع عند شرفه · ـ هنا ينقطع ما كتب الجاحظ · (10)

ولكنا اذا قدمنا على اضافة ما سقط من نص هذه الرسالة قلنا ان وظيفة الامام الذى مرتبته ادنى مرتبة ليست بشرع شريعة ولا بتوكيد شريعة أو بشارة برسول كائن فى المستقبل بل وظيفته المحافظة على الشريعة المنزلة وتلقين الناس مناهج العمل بها كى تصلح احوالهم فى الدنيا وفى الآخرة · ومن أجل تحقيق ذلك الغرض

(10) الجاحظ ـ رسائل ـ تحقيق السندوبى ـ القاهرة 1933 ـ ص 247 وما بعدها .

يحتاج الامام الى نسب شريف كما شرحه صاحب رسالة الخميس لانه ليس برسول مستغن عن الحسب وليس بنبى يكتفى باعلام الرسول · اما منزلة امام الهدى فمثبتة بكونه من لحمة أهل بيت الرسول ·

هذا هو الاساس النظرى لخلافة المأمون أو لامامة الهدى · فلنبحث الآن عن تأثير النظرية على تصرفات الخليفة السياسية · قلنا ان المأمون لم يدع الخلافة الا بعد اشتعال نيران الحرب الاهلية مع أخيه الامين · فمن البديهى ان همته الاولى كانت اعادة وحدة المسلمين · فنرى المأمون يسعى فى ذلك الغرض بحسب معتقداته التى شرحناها آنفا · ان الامين وخلفه من بعده ابراهيم بن المهدى كانا يعتمدان على قوة أهل السنة فى بغداد الذين كانوا يعارضون أهل الاعتزال الذين التفوا حول المأمون · وكانت الفرقة المتطرفة من أهل السنة من سماهم الجاحظ فى رسالة له مشهورة«النابتة»· وكان من عادات النابتة ان يمدحوا معاوية حقدا منهم على دولة بنى العباس · فصاروا الآن أعوانا للامين وابراهيم على المأمون واصحابه ·

فلما غلب المأمون على اعدائه عفا عنهم وتجاوز عن عذابهم لانه كان يرغب عن القهر· انما كان قصده تربية الناس حتى يدركوا صحة مقالاته الدينية واعماله السياسية · وكانت همته ادحاض حجج المخاصمين بحجج احسن منها لا بالدرة وبالسيف · لذلك السبب اعلن رسميا بعض العقائد التى قد ناقش فيها أهل الاعتزال ثم وافقوا عليها لانها فى ظنهم لا تتعارض مع المعقول والمنطق · وكان المأمون موقنا بان كل الناس سيقبلون تلك العقائد فتعود الوحدة ويزول النزاع ويكون السلام قائما الى الابد · اعلن المأمون ان ذكر معاوية بالخير ممنوع وان على بن ابى طالب خير الناس اجمعين وان القرآن مخلوق · ما معنى نلك العقائد الثلاث ؟ تقصد تلك العقائد الى تذليل النابتة لانها كانت تمدح معاوية وتشتم على بن ابى طالب وتقول بان القرآن كلام الله وان كلامه غير مخلوق يعود الى الله يوم القيامة مثلما خرج من عنده · روى يحيى ابن اكثم فى كتاب بغداد لابن طيفور ان المأمون أمر بجمع الفقهاء وأهل العلم عند دخوله بغداد · فلما حضروا مجلسه قال لهم لماذا لا تفضلون على بن ابى طالب على سائر السلف ومناقبه مشهورة جدا تدل بصراحة على عظيم فضله ؟ وما قصدنا من

تفضيل على بن ابى طالب تذليل غيره من الصحابة كما زعمه تلك الطوائف التى خالفتنى فى عقيدتى هذه التى هى مبنية على حجج معقولة ٠

ثم شرح الخليفة مبادىء مقالاته فى على حتى يدرك من حضر من أهل العلم صحة تلك المقالات ثم يقبلوها طوعا ويجمعوا على ما هو أرضى واصلح للدين (!) وفى العقد الفريد حديث طويل فى احتجاج المامون على الفقهاء فى فضل على ٠ فنرى المأمون يثبت ضرورة تفضيل على على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اجمعين،وهو يشير الى ان فى زعمه لعلى كرجل واحد مثل مناقب الصحابة باجمعهم ٠ قال الراوى فأقبل علينا المأمون وقال ما تقولون ؟ فقلنا كلنا نقول بقول أمير المؤمنين فقال ٠٠٠ اللهم قد نصحت لهم القول اللهم انى قد اخرجت الامر من عنقى اللهم انى ادينك بالتقرب اليك بحب على وولايته ٠ (12)

من هنا ومما روى الجاحظ فى نفس الموضوع نعلم ان المأمون كان يدين بقول الزيدية فى على بن ابى طالب وكان نفس القول من معتقدات المثقفين الذين حاباهم البرامكة ثم اجتمعوا حول المأمون فى خراسان بعد سقوط البرامكة وكانوا كلهم يدينون بهذا القول لانه فى زعمهم اصح قول على الاطلاق واقربه الى العقل والفهم ٠ وكان المأمون يرجو ان يقنع الطوائف به ٠

ومن أقوال الزيدية أيضا ان الامامة انما تجوز فى الشخص الافضل من قريش وان كانت جائزة فى الشخص المفضول فى ظروف معينة وان الافضل اذا صار اماما يتواضع له كل المخالفين فتصير الامة واحدة مثلما كانت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ٠ تبنى المأمون هذه العقيدة أيضا فعين عليا حفيد جعفر الصادق وليا للعهد من بعده وسماه الرضا تعريضا منه لتلك العقيدة الزيدية ولقول الهاشمية القديم بان الرضا من آل محمد سيصالح بين الاعداء وسيعامل المؤمنين بالعدل وسيرفع سلطان الظلم عنهم ٠ فنرى المأمون الخليفة العباسى يرجع وحدة الامة على اسرته العباسيين وهو يحقق ما طلبت الهاشمية من امامة الرضا من آل محمد ٠

(11) ابن طيفور ــ كتاب بغداد ــ تحقيق كلر ــ ليبزيغ 1908 ــ ص 75 .
(12) ابن عبد ربه ــ العقد الفريد ــ تحقيق أحمد أمين ــ القاهرة 1940 ــ 101/5 .

استعمل المأمون ما ادعاه المهدى من حق الخليفة العباسى فى تعيين ولى العهد ٠ وانما استعمله لغرض غير الغرض الذى كان جده يقصد اليه ٠

فلنورد الآن بعض فصول العقد الذى عهد فيه المأمون بولاية العهد الى على الرضا ٠ يقول المأمون ان على الخليفة ان يختار من هو أهل لقمع المخالفين فكانت خيرة الخليفة بعد استخارته لله من البيتين العباسى والعلوى على بن موسى بن جعفر لما رأى من فضله البارع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وزهده الخالص وقد استبان له ما لم تزل الاخبار عنه متواطئة والالسن عليه متفقة والكلمة فيه جامعة ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعا وناشئا وحدثا ومكتهلا فعقد له بالعقد والخلافة ايثارا لله والدين ونظرا للمسلمين وطلبا للسلامة وثبات الحجة والنجاة فى اليوم الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين (13) ، ثم بعد ذلك رحل على الرضا من الحجاز الى خراسان ليصاحب المأمون الخليفة فى سفره وحضره ٠ فتناقشا يوما من الايام فى السلطان على المسلمين ٠ وقال على الرضا : ان العلويين يدعون الامر بسبب قرابتهم من رسول الله ٠ فرد عليه الخليفة : انه ان لم يكن هاهنا شىء الا القرابة ففى خلف رسول الله من هو اقرب اليه ومن هو فى القرابة مثله ٠ (14) أشار المأمون بتلك الكلمات الى ان الامامة لا تجب الا لافضل اهل البيت ٠ فيؤكد هذا الحديث ما شرحنا من آراء المأمون فى الخلافة والامامة ٠

وبذلك اتممنا شرح مقالات المأمون وخلاصتها ان امام الهدى يجب ان يكون من لحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كى يمكنه أداء وظيفته العظيمة الشأن وهى تربية الناس على التمسك بالشريعة حتى تصلح احوالهم فى الدنيا والآخرة وان كل ذلك لا يتم الا على يد الافضل من أهل البيت جميعا ٠ يظهر فى افكار المأمون الدينية والسياسية المفهوم الاعلى للسيادة الاسلامية فى القرون الوسطى وهو ان المأمون ربط بين السيادة والتربية واعتبر نفسه مسؤولا عن نجاح التربية التى لا تقصد الى القهر والاضطهاد بل الى تمكين المؤمنين من استخدام العقل الذى هو افضل ما انعم الله تعالى به عليهم ٠ وهذا هو الذى يدلنا على كبر المأمون وعظمته لا أعماله السياسية التى فشل فى معظمها الامر الذى يتفق عليه أصحاب التواريخ ٠

(13) القلقشندى ـ صبح الاعشى ـ القاهرة 1313 ـ 9/365 .
(14) ابن قتيبة ـ عيون الاخبار ـ القاهرة 1930 ـ 2/140 .

فهـــرس الـعــــدد